م/ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي

التعريف بالصعلكة

في اللغة :

في لسان العرب : "الصُعلوك " الفقير الذي لا مال له ، زاد الازهري ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجلُ اذا كان كذلك . قال حاتم الطائي :

غَنينا زماناً بالتصعلك والغَنى فكلاً سقاناه بكأْسيهما الدهرُ .

أي عشنا زمانا .

وتصعلكت الإبل : خرجت اوبارها ، وانجردت ، وطرحتها .

ورجل مصعلك الرأس : مدوره .

ورجل مصعلك الرأس : صغيره .

وصعاليك العرب : ذؤبانها. والربط بينهم وبين الذؤبان ان هؤلاء الفقراء كان بينهم وبين الذئاب تشابه في اسلوب الحياة او اسلوب العيش او طبيعة الشخصية . وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ، لانه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنم .

لا بد لنل من الوقوف عند الزيادة التي اضافها الازهري الى هذا المعنى اللغوي ، وهي قوله " ولا اعتماد " لنعرف الى أي مدى تحدد هذا المعنى وتكمله ؟ والمعنى اللغوي لهذه العبارة واضح ، فاعتمد على الشيء : توكأ او اتكأ علي ، واعتمد عليه في كذا : اتكل عليه .

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك في اللغة هو : الفقير الذي لا مال له يستعين به على اعباء الحياة ، ولا اعتماد له على شيء او احد يتكيء عليه او يتكل عليه ليشق طريقه فيها ، ويعينه عليها حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة .

في الاستعمال الادبي : مفهومها الادبي لا يتفق تماما مع مفهومها اللغوي . فهذا عمرو بن بَرَاقة الهمداني يغير على ابله وخيله رجل من مراد ، فيذهب بها ، فياتي عمرو فيغير على المرادي فيستاق كل شيء له ، ويقول :

تقول سليمى : لا تَعَرَض لتلْفة وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينامُ الليل منْ جُلُ ماله حسامٌ كلون الملح ابيضُ صارمُ
الم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليلٌ اذا نام الخليُ المسالمُ .

إن جو القصة وسياق الأبيات لا يدلان على أن الصعاليك هنا هم الفقراء . من الواضح أن الصعاليك هنا هم اولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم ، او يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم ، وإنما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة ، بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء ، فالكلمة إذن خرجت عن الدائرة اللغوية دائرة الفقر،إلى دائرة أخرى أوسع منها هي دائرة الغزو والإغارة والنهب والسلب

الناظر في أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ، يستطيع ان يلاحظ ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها عصاباتهم وهي :

طائفة " الخُلعاء الشُذاذ " ، الذين انكرتهم قبائلهم ، وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ، وقطعت ما بينهم وبينها من من صلة ، وتحللت من هذا العقد الاجتماعي الذي يربط بيينها وبينهم . مثل حاجز الازدي .

طائفة " الاغربة " السود الذين سرى إليهم السواد من امهاتهم الإماء ، فلم يعترف بهم اباؤهم العرب ، ولم ينسبوهم اليهم ، لان دماءهم ليست عربية خالصة وانما خالطتها دماء اجنبية لا تصل من درجة نقائها إلى درجة الدم العربي مثل " تأبط شراً " و" الشنفرى " و"السُليك بن السُلكة " .

طائفة " الفقراء المتمردين " الذين تصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلفة التي كانت تسود المجتمع الجاهلي ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب ، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل .

ومن هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات الصعاليك وهي عصابات قطعت ما بينها وبين قبائلها من صلات وانطلقت إلى الصحراء . كما تنطلق الذئاب الجائعة . وقد جمع بينهم على اختلاف قبائلهم الفقر ، والتشرد ، والتمرد . والظاهرة الواضحة في حياة هؤلاء الصعاليك هي انهم جميعا فقدوا توافقهم الاجتماعي . وظاهرة التوافق الاجتماعي هي الظاهرة التي يقرر علماء الاجتماع على أنها الأساس الذي تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع . بحيث يكون عمل الفرد من اجل صالح المجتمع ، كما يكون عمل المجموع لصالح الفرد . وفقدان هذا التوافق الاجتماعي ينتهي بالفرد عادة الى ان تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس السلوك الصراعي .

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك

١. شعر مقطوعات :حين ننظر في شعر الصعاليك الذي بين ايدينا ، من الزاوية التي تظهر على بنائه الخارجي ، فأول ما يلفت نظرنا فيه انه شعر مقطوعات ، ولسنا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه ، وإنما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة . وإذا استثنينا تائية الشنفرى المفضلة ذات الأبيات الأربعة والثلاثين أو الخمسة والثلاثين في بعض المصادر ، ورائية عروة بن الورد ، وفائية صخر الهذلي ، وقافية تأبط شرّاً ، وبائية الأعلم ، وميمية ابن خرَاش . نجد أنفسنا أمام مجموعة من كبيرة من المقطوعات التي يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين البيتين والسبعة ، وأمام مجموعة أخرى من القصائد القصيرة التي توشك ان تكون مقطوعات لاتتجاوز اطولها وهي فائية الشنفرى ، عشرين بيتاً او تسعة عشر بيتاً في بعض المصادر ، هذا الى جانب مجموعة كبيرة من الأبيات المفردة التي يرجح أنها أبيات من قصائد أو مقطوعات لم تصل الينا .

ويعود السبب إلى أمرين : إما أن نفترض أن مجموعة شعر الصعاليك ناقصة لا من حيث عدد قصائدها ومقطوعاتها فحسب ، ولكن من حيث عدد أبياتها ايضاً ، وهو يتفق مع ما ذهب اليه مؤرخوا الادب العربي من ضياع اكثر الشعر الجاهلي .

والآخر : طبيعة حياتهم نفسها ، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يُفرِغ صاحبه نفسه لتطويله وتجويده ، وإعادة النظر فيه ، كما كان يفعل الشعراء القبليون تلك الطبقة الارستقراطية التي فرغت للفن فراغاً هيأته لها قبائلها لا من اجل الفن ولكن من اجل نفسها . فلم يكن الشاعر الصعلوك يُفَرِغ لفنه كما يُفرَغ زهير لحولياته ، وامرؤ القيس في حياته اللاهية الفارغة المطمئنة التي ضمن له رغدها ملك ابيه ، او النابغة في حياته المستقرة في بلاط المناذرة والغساسنة ، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن حياة الصعاليك كانت حياة قلقة مضطربة ، وانهم جميعاً كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بأنها حياة قصيرة ، وبأنهم دائماً على موعد مع الموت الذي يترصدهم ، حتى كثُر ذكر الموت عندهم . وتردد الحديث عنه في شعرهم .

٢ـ الوحدة الموضوعية : الناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده ، بحيث يستطيع ان يصنع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها ، دالاً على موضوعها وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعه ، تلك القصائد التي

تبدأ عادةً بمقدمة طللية ، ثم تظل تنتقل من موضوع الى موضوع حتى تصل الى نهايتها ، حتى لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربي القدماء .

ونستطيع ان نمضي مع مجموعة شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاته وأكثر قصائدها ، سواء ما كان منها في وصف المغامرات أو الحديث عن سرعة . لعدوٍ أو الفرار أو تقرير فكرة اجتماعية أو اقتصادية ، ولا نكاد نجد صعوبة غي وضع العناوين المختلفة لها المعبرة عنها ، الدالة على موضوعاتها ، فمثلاً بائية الشنفرى "غارة على العوص" ، ورائية تأبط شرَاً " احتيال " ، وفائية السُليك بن السُلكة " الماشية المذعورة " ، وكافية تأبط شرا " الصديق الصعلوك" .

٣. التخلص من المقدمات الطللية : هذا طبيعي مادام الشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم ، إذ أن المقدمات الطللية بطبيعة الحال تُخلْ بهذه الوحدة الموضوعية . اذ لا نكاد نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك على مقطوعة او قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية ، وإنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً اخر استعاوضوا به عن هذه المقدمات . وهذا مذهب جعلوا محوره " حواء الخالدة " ، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين ، تلك المرأة التي يتدله الشاعر في حبها ويبكي أيامه معها ، ويقف على أطلال ديارها ، ويدعوا أصحابه إلى الوقوف معه ، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها ، التي تدعوه دائماً الى المحافظة على حياته ، ان لم تكن من اجل نفسه فمن اجلها هي ، وليس من شك في انها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة للأنثى الضعيفة التي يظهر صاحبها الى جوارها بطلاً قوياً مستهيناً بحياته من اجل فكرته ، نستطيع ان نطلق على هذه المقدمات النسائية عند الشعراء الصعاليك " مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك " في مقابل " المقدمات الطللية في الشعر القبلي " .

يستهل عمرو بن براقة قصيدته الميمية بحديث بينه وبين صاحبته ، تنصحه فيه بالا يُرِض نفسه للمخاطر ، وان يجعل ليله سباتاً يستريح فيه ، ولكنه يعجب من هذه النصيحة فكيف ينام الليل من وهب حياته للبطولة والمغامرة ؟ الم تعلم بأنه احد أفراد طائفة الصعاليك الذين لا ينامون من الليل الا قليلا ؟ وهل تريد منه أن يكون كأولئك الخليين المسالمين الذين ينامون الليل كله :

تقولُ سُليمى لا تَعرضْ لِتلفَــةٍ وليلك عن ليـل الصعاليكُ نائـمُ

وكيف ينامُ الليلَ من جـلّ مالـهُ حُسامٌ كلون الملح ابيضُ صارمُ
غَموضٌ اذا عض الكريهةَ لم يَدعْ لهُ طعماً ، طَوْعُ اليمـين مـلازمُ
الم تعلمي ان الصعاليك نومهـم قليـلٌ إذا نـام الخلـيُ المسالـمُ

٤ . التحلل من الشخصية القبلية : وهي ظاهرة ليست على شعر الصعاليك لأنها تتفق وظاهرة الصعلكة ففقد التوافق الاجتماعي بين الصعاليك وقبائلهم ترتب عليه فقد الإحساس بالعصبية القبلية في نفوسهم . ومن الطبيعي الا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد احساسه بالعصبية القبلية ، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعياً فمن الطبيعي ان تنقطع فنياً ، ونعني بأنقطاعها فنياً تحلل الشاعر الصعلوك من العقد الفني الذي نراه بين الشاعر القبلي وقبيلته ، فلا يكون الشاعر الصعلوك لسان عشيرته ، لان ما بينه وبين عشيرته قد انقطع ، ولا يكون شعره صحيفة قبيلته ، لأنه لم تعد له قبيلة ، وإنما يصبح شعره صورة صادقة كل الصدق من حياته هو ، يسجل كل ما يدور فيها ، ويُصبح ضمير الفرد " أنا " أداة التعبير فيه بدلاً من ضمير " الجماعة " ، " نحن " الذي هو أداة التعبير في الشعر القبلي ، وتُصبح المادة الفنية لشعره مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته ، ومعنى هذا أن ظاهرة الفناء الفني لشخصية الشاعر القبلي في شخصية قبيلته التي نلاحظها بوضوح عند اصحاب المذهب القبلي في الشعر الجاهلي قد اختفت من مجموع الشعر داخل دائرة الصعلكة ، وحلت محلها ظاهرة أخرى يصح أن نطلق عليها " **ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك** " ، ولكن شخصية الشاعر الصعلوك شخصية يشاركه فيها أفراد جماعته ، لأنهم جميعاً يؤمنون بمذهب واحد ويدينون بعصبية مذهبية واحدة .

٥. القصصية : شعر الصعاليك في مجموعه شعر قصصي يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح ان تكون مادة طيبة للفن القصصي ، فحوادث مغامراتهم الجريئة التي كانوا يقومون بها فرادى وجماعات ، وما كان يدور فيها من صراع دام مرير ، وأخبار فرارهم وعدوهم ، وتشردهم في أرجاء الصحراء ، كل هذا وغيره مادة صالحة للفن القصصي وقد استغل الشعراء الصعاليك هذه المادة في شعرهم استغلالاً قصصياً جمع في صورة بسيطة عناصر الفن القصصي الأساسية من الإثارة والتشويق وتسلسل الأحداث

حتى تصل إلى غايتها الطبيعية المحتومة ، ولو نظرنا الى عناوين مقطوعاتهم وقصائدهم نرى أنها في مجموعها عناوين قصصية وهي " غارة على العوص " و " فرار " و" نجاة " و احتيال" . وغيرها .

وهل لامية تأبط شرَاً الا قصة تبدأ بحوار بين صاحبة الشاعر وجاراتها ثم تتابع احداث القصة التي تدور بين بطلها وهو الشاعر الصعلوك في ليلة مظلمة حالكة وبين غول قابلها ، حتى تصل القصة الى نهايتها حين يقتل الشاعر الصعلوك هذا الغول ويخلفها صريعة .

وليس من البعيد أن يكون امرؤ القيس قد فتنه ذلك الأسلوب القصصي في شعر هؤلاء الصعاليك ، فحاول تقليده في شعره ، ثم اتخذه مذهباً فنياً له . وإذن فليس امرؤ القيس أول من اصطنع القصة في الشعر العربي بل هم الشعراء الصعاليك ، وليس شعر امرئ القيس نقطة البدء في تاريخ القصة الشعرية بل تسبق هذه مرحلة اولى هي مرحلة الشعراء الصعاليك " رواد القصة الشعرية في الأدب العربي" .

٦. الواقعية : أول مظاهر هذه الواقعية اتخاذهم الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضاعاتهم ، وبعدهم عن الإمعان في الخيال امعاناً ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الأوهام . صور الشعراء الصعاليك في فنهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها : الصحراء القاسية بشعابها وجبالها وصخورها . وصوروا مظاهر الطبيعة المختلفة كما شاهدها : طلوع الفجر ، وغروب الشمس ، والندى المتساقط في أول الليل وفي آخره .

المظهر الثاني لهذه الواقعية صدق النقل عن الحياة ، ومطابقة الصورة للأصل ، بحيث لا يشعر الناظر في شعر الصعاليك باختلاف بين الصورة الشعرية واصلها في الحياة .

الشنفرى

لم يختلف الرواة في نسبة الشنفرى الاى الأزْد ؛ فهو الشنفرى الازدي ، وان لفظ الشنفرى اصبح من الشهرة بحيث لا يحتاج الى زيادة تعريف او توضيح ، لم يشارك فيه صاحبه ، او لم يزاحمه في الشهرة على الاقل شخص آحر .

هناك نقاط تتفق عليها الرواة او تكون في حكم المتفق عليها من حياة الشنفرى ، وهناك نقاط تختلف حولها الروايات . فما تتفق عليه الروايات أنه ازدي من حيث النسب ، ومن المتفق عليه ايضاً أنه نشأ في غير قومه ، حيث نقل وهو غلام صغير الى قوم آخرين وهم بنو شبابة بن فهم ثم نقل منهم الى بني سلامان بن مفرج وهم من الازد ايضا ، وأن حياته في هذا التنقل لم تكن

حياة العزة التي يحظى بها ابناء المكان ، وانما حياة الدخلاء على القوم ، ومن المتفق عليه أن عداوته تركزت على بني سلامان حتى ألى على نفسه أن يقتل مائة رجلٍ منهم ، وأنه ظل مصمماً ومستميتاً في تنفيذ وعيده هذا حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً قبل أن يدركه الموت ، ومن المتفق عليه أيضا أنه مات قتيلاً ، وأن بني سلامان في احدى محاولاتهم التربص به والترصد له هم الذين قتلوه ، ومن المتفق عليه أنه من أشهر صعاليك العرب وقطاع الطرق فيهم، ومن أشهر شعرائهم وأجود شعراً ايضاً . ومن المتفق عليه أنه من العدَائين الذين لم يلحقهم خيل ولا أحد قط ، وانه بلغ من امتيازه عن غيره من العدائين اذ ضرب به المثل في العدوِ ، ومن طريف ما تتفق عليه الروايات جميعاً بالنسبة للشنفرى خبران غريبان ، وغرابتهما هي مصدر الطرافة ؛ احدهما أنه حين مات لم يكن قتل الا تسعة وتسعين من المائة الذين أقسم أن يقتلهم من بني سلامان ، وبعد موته بزمن لم تحدده الروايات مر رجل من بني سلامان فأصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى فَعَقِرت فمات ، فأكتلت به المائة ، والخبر الثاني أن الوصية الوحيدة التي أفضى بها عند موته حين همَ اعداؤه بقتله هي ألا يدفنوه ، بل يتركوا جيفته في العراء غنيمة للضبع المشهورة بالبحث عن الجيف بأعتبارها الطعام الشهي المفضل لديها ، وقد صاغ الشنفرى وصيته هذه في شعر من أشهر ما تحرص الكتب القديمة على أثباته وتداوله ، حيث يقول :

فلا تَقبروني انَ قبري مُحضرَمٌ عليكم ولكن أبشري امَ عامر

وأم عامر كنية الضبع عند العرب . وبعد ذلك قتلوه ، وقد رثاه رفيقه وصديقه تأبط شرَاً :

على الشنفرى ساري الغَمام ورائح غزيرُ الكُلى ، وصيِبُ الماء باكِرُ .

فهو يدعو لقبر الشنفرى بأن يسقى من الغمام الغزير الماء ، والكُلى : جمع كلوة وتطلق على المنخفض من السحاب ويعني بها الماء نفسه ، والباكر الذي يستقبل النهار في اوله .

وفي حكم المتفق عليه أنه جاهلي ، ولم يخالف في ذلك الا صاحب القاموس المحيط للفيروز ابادي ، حيث عده من أغربة العرب الاسلاميين ، وهم السودُ الالوان تشبيهاً بالغراب المشهور بالسواد ، ومن الواضح أنه مجرد لبس من صاحب القاموس ، حيث يركز همه كله على التحقيق اللغوي وليس التاريخ .

لامية العرب

تثير هذه القصيدة قضية ذات بال في الادب العربي من حيث التنازع عليها بين العرب والعجم ومعنى ذلك انها ليست قصيدة عادية او يسيرة الشأن ، فالواقع أنها درة لامعة في الادب العربي كله ، وقد تكون هناك قصائد اتيح لها قدر كبير او صغير من الشهرة والذيوع لأرتباطها بأحداث معينة ، ولكن لا تعرف قصيدة اخرى في الشعر العربي كله تنافس لامية العرب في موضوعها بالذات ، وفي مقدرتها على تصوير لون من الحياة العربية هو حياة الصعلكة ، وعلى التعبير عن حياة ائفة من المجتمع العربي وهم الصعاليك ، وعلى وصف بيئة معينة في الجزيرة العربية ، وهي البيئة التي اتخذ منها الصعاليك ميداناً لنشاطهم ، ومنطلقاً لغاراتهم ، بما تشتمل عليه هذه البيئة من خصائص في بيعتها وفي حيوانها ، وفي مناخها ، وقد صيغ ذلك كله في ثوب شعري واضح الجودة واضح التميز والتفرد .

لامية العرب : قصيدة عربية خالصة ، لشاعر معين مشهور هو الشنفرى ، ولكنها لما تمثله من قيمة ادبية فريدة تعرضت في القديم لمحاولة تشبه السطو لكنها لم تنجح ؛ لانها كانت محاولة غير قوية من جهة ، كما كانت كل الظروف ضدها من جهة اخرى ، ثم الغريب ان تعود هذه المحاولة بعد اكثلر من الف عام من المحاولة الاولى ، وللغرض نفسه ، هو محاولة سلخها من النسب العربي ، في صورة التشكيك في نسبتها الى الشنفرى ، وادعاء نسيتها الى خلف الاحمر وهو من اصول غير عربية .

ظاهرة المنصفات في الشعر القديم (العصر الجاهلي)

انصاف الخصم في شعر الحرب عند شعراء العصر الجاهلي

أشار اليه الدكتور عفيف عبد الرحمن في كتابه (الشعر وايام العرب في العصر الجاهلي) ، بقوله " مقطوعة أو قصيدة من الشعر يقولها الفارس مصوراً خصمه ، أو خصوم قومه ، محاولاً انصافهم بأعطائنا صورة حقيقية لشجاعتهم ونبلهم " . ولو رجعنا لمعجم المصطلحات العربية في اللغة والادب لوجدنا تعريف المنصفات بانها " لقب للقصائد الجاهلية التي لم يبدل قائلوها الحقائق فيها ، فيعترفون بهزيمة اقوامهم ان هزموا ، وبفرارهم ، ان ولو الادبار ، ولا يبخلون على اعدائهم بوصف شجاعتهم وبلائهم في الحروب " .

وترجع اقدم منصفة عُرفت في الشعر الجاهلي للمهلهل الذي يذكر له الاصمعي في اصمعياته قصيدة قالها يوم عُنيزة في حربهم مع بكر ، يقول فيها :

غَـــداةَ كأننـــا وبَنِـــي أبِينـــاَ بِجَنبِ عُنَيْزَةٍ رِضحْيَا مثدِيـرِ
كـأنَ الْجـدْيَ جَـدْيَ بنـــاتِ نَعشٍ يَكُبَ على اليَدَيْنِ بِمُستَدِيـرِ
وَتَحْبُـو الْشُعرَيـــانِ الـــى سُهـــيلٍ يَلـوحُ كقمـةِ الجـــبلِ الكبيـرِ
وكانُـــوا قَوْمَـــنا فبَغَـــوا علينـــا فـقـــد لاَقـــاهم لفـح السَعيرِ

وعرفت في المجتمع الجاهلي أصواتٌ أخرى تبحر عكس التيار ، وتنحرف بمسارها عن الطريق التي رسمته القبيلة ، وتمثل ذلك في شعر الشعراء الصعاليك ، وشعر المنصفات ، الذي يسير في اتجاه معاكس لاتجاه الشعراء في فخرهم بذواتهم وذويهم ، ويقف من الخصم في موقف مغايراً لما عرف عن معظم شعراء العصر الجاهلي من ازدراء بالخصم ، واستهانة به خاصةً عند النصر عليه فجاء صوت الشاعر المبصف متهجداً تارة ومرتفعاً تارةً أخرى ، ورافضاً في احيان كثيرة ، وصوت الشاعر الذي اعلنه الشاعر الجاهلي كان قاصدا به قبيلته لأنها استسلمت فجاء صوت الشاعر رافضاً هذا المنزع الخجولي ، ومعلناً العصيان لقبيلته ، ومعلناً رضاه عن القبيلة التي انتصرت ، وربما مدحها .

التوجه الى شعر المنصفات في العصر الجاهلي لم يكن توجها عاما بل كان توجها فرديا ، فالشاعر كان احيانا يضطر اليه اضطراراً عندما يقع تحت ظرف معين ، كقول دريد بن الصِمَة:

ما ان رأيتُ ولا سمِعتُ بمثلِهِ حامِي الظعينة فارساً لم يُقتلِ
ارى فوارسَ لم يكونوا نهزَةٌ ثم استمر كأنَهُ لم يفعلِ
مُتهلِلاً تبدوا اسرة وجهه مثل الحسام جَلَتْهُ كفُ الصقيلِ
ياليت شعري مَنْ وأمه يا صاح من يكُ مثلهُ لا يُجهلِ .

الابيات كلها مدحٌ في خصمه ، واعجاب بشجاعته ، ولها قصة وردت في ديوان دريد ، والقصة والابيات ذات موقف معين ، الزمت دريد بالانصاف ، وذر مناقب عدوه ، واظهار شجاعته وشدة بأسه .

ولعنترة الذي عرف عنه الفتك وشدة البطش باعدائه ابيات تعد نموذجا للانصاف ، فقد نسب الى خصمه صفاتاً وخصالاً لا تماثل ما نسبه الى قبيلته من عبس ، ولم يترك شيمة من سيم الرجال الصناديد الا نسبها لخصمه فقال :

فلم أرَ حَيَاً صابَروا مثلَ صَبــْرِنــا ولا كافحوا مثلَ الذيــنَ نكــافِــحُ
اذا شِئـتُ لاقانــي كَمـــيُ مدجـَجُ على أَعْوَجِيَّ بالطِعــانِ مُسامِــحُ
وسارَت رِجالٌ نَحْوَ أُخرى عليهِمُ الـ حديدُ كما تمشي الجِمالُ الَدوالِحُ
اذا ما مَشَوا في السابغاتِ حَسِبْتَهُمْ سُيولاً وقد جاشتْ بِهِنَ الأباطِحُ

صابروا مثل صبرنا : أي صابروا العدو في الحرب ، ولم يبدُ منهم جبن ، والمكافحة :هي المزاحمة والمقاتلة في الحرب .

الكميَ : الشجاع ، والمدجج الداخل في السلاح ، والاعوجي منسوب الى اعوج : فحل قديم . قوله : مسامح : أي سخي بالطعان سمح به وهو نعت للمدجج .

وقوله :"كما تمشي الجمال الدوالح " أي : رجعنا لهم ورجعوا لنا مثقلين بالسلاح ، فكاننا واياهم الجمال الدوالح وهي المثقلة .

السابغات الدروع الكاملة . يقول دروعهم ضافية : أي سابغة ، فأذا ما مشوا فيها اضطربت وسال بعضها على بعض ، فكأنها سيول جاشت بهن الاباطح ، أي تمايلت واضطربت .